(قراءات إفريقية).. تحديات النشأة وفرص التطوير

د. خيرالله بن طالب
رئيس تحرير قراءات إفريقية – سابقاً – وأحد مؤسسي المجلة

إصدار (مجلة) ليس بالأمر السهل، ويزداد الأمرُ صعوبةً حين تكون المجلة المراد إصدارها (بحثية)، ويصعب أكثر حين تكون (متخصّصة)، وأكثر حين تكون (محكّمة).. تحدياتٌ كبيرةٌ.. كانت هي نفسها فرص التطوير التي نهضت بالمجلة.

وُلدت (مجلة قراءات) من رحم مؤسسة تنموية دعوية ثقافية مختصّة بإفريقيا، هي (مؤسسة المنتدى الإسلامي)، وذلك لِمَا رآه القائمون عليها من شبه غياب للدراسات المتخصّصة في إفريقيا، وخصوصاً تلك التي تخدم الأعمال الخيرية فيها، حيث كانت الساحة تعاني حالة انفصال بين الفكر والعمل، وهذه الحالة جزء من حالة الأمّة التي نما فيها الفكر؛ غير أنّ نموه لم ينعكس على العمل بصورة كافية.

كان الهدف إصدار مجلة بحثية مواكبة للمسيرة العملية.

كانت البداية مع كتّاب عاملين في الساحة الإفريقية، وآخرين باحثين في أروقة المعاهد الإفريقية، وكان هذا أول البناء في هذا المجال، قام عليه متخصّصون في المؤسسة، اجتهدوا في العمل لإصدار العددين الأولين، حتى رأيا النور.

لكن توقفت المجلة بعد ذلك لعدم وجود باحثين متفرغين للمجلة، ولغياب مدير متفرّغ للمجلة، وهذا شاهد من شواهد الانفصال المشار إليه أعلاه، وهي النتيجة المحتمة لكلّ مشروع لا يفرّغ له مدير يقوم عليه، الأمر الذي يشير إليه الإمام السعدي في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً...﴾ [التوبة : ١٢٢].

طالت مدة الانقطاع.. حتى بلغت عامين، جدّت بعدها تحديات وأحداث عظام واجهت العمل الخيري، وبخاصة الإفريقي، أكدت بمجموعها ضرورة إصدار مثل هذه المجلة، وفي الوقت نفسه أدى تقلّص بعض مجالات العمل الخيري إلى تفريغ كوادر للمجلة، لتبدأ المسيرة قوية من جديد.

وعلى الرغم من ذلك؛ فقد تأخر صدور العدد الثالث بسبب نقص الخبرة البحثية والإدارية لدى فريق العمل، فأخذوا على عاتقهم الالتحام بالمختصين في العمل البحثي والمجال الإفريقي، وعقدوا ورشة عمل على مدى يومين، قاموا فيها بوضع ملامح الخطّة الجديدة للمجلة.

وظلّ بناء الفريق واستقطاب المتميزين مشكلة تواجه المجلة على مدى عامين، حتى

استقر الأمر بحمد الله تعالى على فريق مؤهّل، منسجم، متعاون، متكامل، منفتح على الخبرات، يتواصل مع كلّ الباحثين والخبراء، ويأخذ أفضل ما عندهم، الأمر الذي أغنى المجلة عن الحاجة إلى تفرّغهم، وهكذا استطاع فريق العمل المؤهل تعويض نقص الخبرة والتخصّص بحسن الإدارة وحسن النية معاً.

كانت تلك أبرز مشكلات التأسيس، ومشكلات معاودة الانطلاق.

وقد واجهت الانطلاقة الجديدة وقتها تحديات أكثر، ومن نوع خاص أكثر دقّة؛ من المهم أن نستعرضها مع قراء مجلة قراءات إفريقية بمناسبة مرور عشر سنوات على إصدارها، للإفادة مما بها من دروس، ونحن على أبواب مرحلة جديدة من عمر المجلة.

تحديات الوصول إلى القلم الإفريقي المحقّق للهدف:

لم يكن يسرّنا أن نرى أغلب الأقلام في المجلة عربية، فقد كان أملنا أن تكون المجلة من إفريقيا إلى إفريقيا؛ أن يكون الكتّاب المحلّلون لأحوالها وشؤونها من أبنائها، لأنهم الأعرف بقارتهم، ومن جانب آخر؛ فإنّ اعتماد المجلة هذا المبدأ سيسهم بلا شك في تأهيل الأقلام الإفريقية الواعدة.

واجهتنا مشكلة الوصول إلى الكتّاب الأفارقة، فطرقنا أبواب المراكز، والطلاب، والمعارف، والفعاليات.. وكانت ثمّة صعوبات لا توصف في التواصل والردّ والتجاوب مع المطلوب عمله.

ومن هذه الصعوبات مثلاً أنه حين كنا نفرح بكاتب نفاجأ بعدها بأنّ قلمه يتوقف عند وصف الواقع، وقلما يتجاوزه إلى التحليل، فطلبنا التحليل عند المتخصّصين في الدراسات الإفريقية، لكن وجدنا كثيراً منهم يقف عند عتبة الاستشراف والتنبؤ.

كان التحدي الأكبر أمامنا: أن نجد مَن يطرح الحلول العملية لمشكلات القارة، ويقترح السيناريوهات المناسبة للواقع المعقّد والمتغيّر باستمرار فيها، وهنا نعود إلى مشكلة الانفصال بين الدراسات النظرية والواقع اليومي.

لم يقف بنا هذا التحدي عن المسير، بل دفعنا لمزيد من الرغبة في المضي قدماً، ومما وفقنا الله تعالى إليه لمواجهة هذه الصعوبات العمل على تكميل النقص لدى بعض الكتّاب، من واقع خبرتنا المتواضعة، ووجدنا من الكتّاب رحابة صدر وتواضعاً طيباً، كانت الفرحة تغمرنا حين نجد منهم التواضع، لأنّ من تواضع لله رفعه، ولأنه لا يضرّ الباحث وطالب العلم مثل الكبر والتعالم والتعالي.

تحديات الواقع المتغيّر:

تواجه المجلات الفصلية صعوبة مواكبة الموضوعات للأحداث وتغيّر المعطيات، فمدة تجهيز العدد تصل لثلاثة أشهر، الأمر الذي يتطلب متابعة الأحداث والمتغيرات التي يمكن أن تؤثر في مضمون المقالات، ومن ثم يلزم بعض المقالات التعديل والتغيير، وهنا قد لا يجد بعض الكتاب الوقت أو المعلومات الكافية لتطوير المقال في ظلّ المستجدات، وهذا يحمّل المجلة عبئاً إضافياً لمحاولة إكمال هذا النقص.

كما واجهت المجلة مشكلة أخرى في تناول القضايا المزمنة، والتي صار بعض مَن يكتب فيها يكرّرون أنفسهم، ولا يقدّمون

جديداً في معالجتها، أو أصبحت القضية نفسها تعيد نفسها، كالأزمات التي مرت عليها عشرات السنين، فكيف للمجلة أن تتناول مثل هذه القضايا، وأن تبث فيها الروح من جديد؟

لم تكن الإجابة عن هذا التساؤل وحلّ هذه المشكلة سهلاً، خصوصاً إذا أضيف إليها التحديات السابقة من صعوبات الوصول إلى القلم الإفريقي الواعي بواقعه، اتخذت المجلة طريقاً وسطاً، فلم تهمل تلك القضايا أو تتغافل عنها، ولم تقع في التكرار الممل، بل رأت أن تربط الماضي بالحاضر والمستقبل، وأن تجعل التكرار مفيداً لا مملاً، انطلاقاً من رسالة المجلة في نشر الوعي، وبثّ التفاؤل، مهما تطاول الزمن وتقادمت القضايا، فاشترطت للنشر فيها شروطاً ومعايير، منها: الجدّة في الفكرة أو التناول، وعدم النشر المسبق، والدقّة والعمق في المضمون.

تحديات تخطيطية:

قارة مترامية الأطراف، في كلّ شبر منها قضية، كيف لنا أن نتناولها بشمولية وتكامل! مع حذرنا أن يفهم أهل بلد أننا نهمل بلدهم، فكلّ إفريقيا قارتنا ومحلّ اهتمامنا، غير أنّ إمكانيات الكتّاب تتحكم فينا أحياناً، والتلقائية والعفوية فيما يصل إلينا من الكتّاب: لم يكن يحقّق طموحنا، وهنا كان لا بد أن يكون للمجلة رؤية ذات بوصلة محدّدة، تمكننا من الوصول إلى الشمولية والتكامل في تناول قضايا القارة الإفريقية.

حاولنا رسم الرؤية، وتحديد المجالات، وجمع الأولويات، لتحقيق ذلك، وكان من الإجراءات العملية التي اتخذناها المبادرة بمطالبة الكتّاب بموضوعات محددة نستهدفها بحسب الرؤية الموضوعة، فصناعة الوعي تتطلب المبادرة لا الاكتفاء بالاستجابة، بل الاستجابة الواعية لمستجدات الساحة تتطلب المبادرة الواعية لسدّ هذه الاحتياجات، وكم تفتقد ساحات العمل لمثل هذه الاستجابة حين تقوم مؤسسات ومراكز كبرى لا تملك بوصلة محددة، إنه سبب من أسباب ضعفنا، فقليل من الإمكانيات مع كثير من التخطيط خير من العكس.

حتى في إطار الموضوعات نفسها وضعنا خريطة تساعدنا على تجنّب الغفلة عن بعض المحاور، أو إعطاء بعض المحاور فوق ما تستحق.

كان إدراج الصور في المجلة أمراً مهيباً، لأنّ التغيير بعد البدء صعب، واحتاجت هذه المشكلة إلى دراسة، ومن ثمّ رأت المجلة ألا تتوسع فيها وتكتفي بالحدّ الأدنى من الصور فيما قد يلزم في بعض الأحيان أو المناسبات، مثل التعريف بالكاتب، وعرض الفاعليات والمشاريع، أو لإضفاء نوع من التوضيح والبيان لبعض القضايا والمواقف المتعلقة بالقارة، ونحو ذلك.

تحديات تنفيذية:

الوصول إلى ما نؤمله لم يكن سهلاً، وهذه طبيعة الحياة.. كنا نريد أن يكون مستوى المجلة بين البحثية وبين الثقافية الخفيفة، لكي تصل رسالة المجلة إلى عدة شرائح، وألا تختص بالأكاديميين والمتخصّصين فقط، وهذا تطلّب أن نوجد نموذجاً ربما لم يكن مألوفاً في المجلات البحثية، وبخاصة الإفريقية، سواء من ناحية التنوع، أو الصياغة، أو الشكل، أو الحجم، أو الألوان..

أن تكون المجلة محكّمةً أمرٌ كنّا نتهيّبه، حتى تكاثرت مقترحات الباحثين الذين كنّا

نراهم من أهل الخبرة في هذا المجال، وكانوا يرون أنّ المجلة متميّزة، وأنها تستحق أن تكون مجلة محكّمة.

لكن المحفّز الأكبر الذي جعلنا نتحمس لبذل الجهد والمال لتكون المجلة محكّمة: هو حقّ الكاتب الإفريقي المتخصّص الذي أكرمنا بنشر مقالاته ودراساته في المجلة، حقّه في أن تمنحه المجلة الترفيع الأكاديمي، كما منحها علمه وجهده، فالكاتب هو رأس مال المجلة.

ومن التحديات التنفيذية التي واجهت المجلة مشكلة الصياغة باللغة العربية، فبعض مَن يكتب إلى المجلة من إفريقيا حين يكتب بلغة غير لغته الأمّ يكثر في أسلوبه الضعف أو ركاكة التعبير أو العبارات التي يصعب فهمها أحياناً، وهذا يتطلّب جهداً مضنياً في التصحيح اللغوي ورفع مستوى الصياغة، وتدقيق بعض الأسماء والأوصاف الإفريقية، الأمر الذي يحتاج إلى الصبر على فهمه وضبطه، وما زلنا لا ندري هل بلغنا في ذلك الدقّة المطلوبة أو لا؟ إننا نفتقر إلى مناصحة كافّة المطلعين على المجلة مشكورين.

تحديات إدارية:

صدور المجلة في وقتها كان يمثّل لفريق العمل عبئاً ثقيلاً، وقد تطلّب منّا ذلك وضع خطة زمنية، نتابع من خلالها سير المقال، بدءاً من كونه فكرة، حتى يكون صالحاً للنشر، حيث يمر بمراحل مختلفة متتابعة، من وضع محاوره، ومخاطبة الكاتب به، وانتظار موافقته، وتحديد تاريخ الاستلام، إلى أن يُجاز إجازة أولية، ويُحال للمراجعة بمراحلها، ثم للتحكيم، ثم للتدقيق، ثم الإخراج، ثم المراجعة النهائية.. وهذا خط إنتاج تسير فيه كلّ المقالات والدراسات والمشاركات، كما تسير قطعة العجين في مراحل حتى تصير رغيفاً، وكما تسير الخامات في خطوط الإنتاج بالمصانع حتى تصير منتجات.

دون رسم هذه الدورة، ودون الجَدْولة الزمنية لها، ودون وجود مدير يتابعها يومياً.. غالباً ما تخفق مثل هذه المشروعات الإعلامية، وتضيع الفرص.

أصعب شيء في إدارة الوقت: إدارة الباحثين، وهي من الصعوبات التي واجهتنا في إصدار مجلة قراءات إفريقية، حيث يمر إعداد المجلة بمراحل زمنية دقيقة تحتاج إلى التزام الباحثين بمواعيد محددة، والباحث أو الكاتب عادة يصعب إلزام قريحته بالإنتاج في وقت محدد، فإنّ الكاتب المبدع كالشاعر، لا يستطيع التحكّم كثيراً في وقت ولادة قصيدته، إلا بعد الدُربة الطويلة والممارسة المستمرة.

ثم تأتي فيما يتعلق بإنتاج الكتّاب والباحثين مشكلة أخرى، وهي مستوى المقال أو الدراسة المقدمة للمجلة، فقد ترى المجلة ضرورة تعديل المقالات، وهنا تخشى أن تخسر الكاتب أو الباحث.. فتحتاج المجلة إلى مراجعته، وصياغة الرسالة التي يتقبل معها الكاتب أو الباحث النقد وضرورات التعديل، خصوصاً إذا كان يكتب للمجلة لأول مرة.

أما رفض المقال: فهو كالجبل على صدورنا، لأننا يستحيل أن ننشر مقالاً غير مجاز، ولا بد لنا أن نشجّع الكاتب ولا نخسره، فإنّ المجلة ترى أن من رسالتها: تشجيع الكتّاب على رفع مستواهم؛ لأنها تعلم أنّ العمل البشري لا يخلو من نقص، وأن الكاتب المبدع كان يوماً ما لا يحسن الكتابة.

تحديات التوزيع والتسويق:

أنجزنا عدة أعداد، كنا نرى كمياتها المطبوعة حولنا! كان يؤرقنا وصولها لإفريقيا.. إنه تحدي التوزيع، الذي بدأنا نتغلب عليه بإمكانيات متواضعة، عبر الإرسال مع الطلاب العائدين إلى بلدانهم، وعبر استثمار التجمّعات والفعاليات الإفريقية التي كانت تقام بمناسبات متنوعة.

لم يكن من السهل أن نعثر على شركة توزيع تغطّي طموحنا في الوصول إلى أرجاء القارة، فعوّضنا ذلك بما سبق، إضافة إلى رصيدنا الميداني السابق لدى شركائنا العاملين في الساحة الإفريقية، من جمعيات، ومنظمات، وجامعات، وشخصيات، وكان لا بد بعد ذلك، خصوصاً مع زيادة شهرة المجلة، من إنشاء قسم مختص بالتوزيع والتسويق، استطاع القائمون عليه نقل المجلة نقلة طيبة في هذا المجال.

تحديات إنشاء موقع المجلة في الإنترنت:

تواجه الإصدارات الورقية تحدّياً كبيراً في السنوات الأخيرة للوصول إلى اهتمام القارئ؛ في ظلّ منافسة وسائل الإعلام الجديدة، وفي مقدمتها الشبكة العنكبوتية، فكان لا بد لنا من موقع يعرّف بالمجلة، وهنا دخلنا في مرحلة جديدة، ليست القضية أن نؤسس موقعاً، لكن أن نحدد بوصلته، وأن نحسن إدارته.

وبقي الموقع بين أيدينا أوراقاً تذهب وتعود، على مدى سنة، دون تقدّم، حيث كان الموقع يفتقد المدير (المتفرغ)، وبعد تعيين مدير (متفرغ) للموقع كان الموقع على الشبكة خلال ثلاثة أشهر - بحمد الله تعالى- في نسخته العربية، وتبعه إطلاق نسخة الموقع بالإنجليزية، لتأتي بعدها النسخة الفرنسية.

أما بوصلة الموقع، فاستغرقت شهراً من العمل، حتى نربط كلّ زاوية بهدف الموقع الذي يساند هدف المجلة.

تحديات التحقّق من تأثير المجلة وأداء دورها:

راودتنا بعد ذلك أسئلة عديدة.. يا ترى هل المجلة لها قراء ومتابعون؟ هل يهتم بها الباحثون والدارسون؟ هل يطلع عليها صنّاع القرار والمسؤولون؟ كانت أسئلة مؤرقة.. تحتاج إلى استطلاعات ودراسات!... فكان الاستبيان تلو الاستبيان حتى نقف على رأي القارئ والباحث والمتابع..

وكان من التحديات التي رأيناها في تحقيق رسالة المجلة في القارة الإفريقية.. أننا وجدنا المجلة نقطة في محيط هادر بالنسبة للقارة، خصوصاً مع قلة الإصدارات التي تعالج مشكلات إفريقيا وتهتم بشؤونها، ورأينا أنّ السبيل لدعم دور المجلة هو التكامل مع المشروعات القائمة، وكانت لنا أحلام في ربط المجلة بالإذاعات، والقنوات، والجامعات.. لتوسيع مدى التأثير، وتشكيل حلقة من دائرة بناء الوعي، واستطعنا أن نعقد شراكات مع بعض المعاهد ومراكز الأبحاث المتخصّصة في الدراسات الإفريقية.

كما كان لا بد من إقامة مشروعات رديفة تساند رسالة المجلة، ومن هنا ظهرت فكرة: (الإصدارات الإفريقية)؛ مثل (كشّاف الكتب والرّسائل العلميّة عن إفريقيا)، وهو إصدار يهدف إلى أن يدل الباحثين على الكتابات السابقة، لئلا يكرروا الجهود، ولكي يكلموا النقص، كما تستهدف منه المجلة خدمة الباحثين الأفارقة في تحديد أطروحات

الماجستير والدكتوراه، وهناك إصدار آخر بعنوان: (التعليم العربي الإسلامي في إفريقيا.. واقعه ومستقبله)، وإصدار بعنوان: (التنصير في إفريقيا.. أساليبه ووسائله وآثاره الاجتماعية)، وفي الطريق توجد دراسات عن الممالك الإسلامية في إفريقيا، ودراسة عن التغريب في إفريقيا، وكذلك دراسة بعض الشخصيات المؤثرة في القارة كعثمان بن فوديو رحمه الله، وكذلك قامت المجلة بإقامة الكثير من الفاعليات والمشاركة فيها، مما سيأتي تفصيله في هذا العدد، وذلك لتحقيق الهدف نفسه.

هل وصلنا؟

هل بلغنا ما نحلم به؟ بالتأكيد لا.. ولن نصل، لكننا سنواصل المسير، ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر : ٩٩].

إننا نصارح القارئ الكريم:

بأنّ كلّ التحديات لم نعدّها عقبات، بل رأيناها فرصاً للتطوير، كانت تدفعنا ولا تعيقنا، وهكذا تُبنى المشروعات، كان كلّ تحد مما سبق هو الحافز لنا للانطلاق، ما رسّخ لدينا أنه لا نجاح بلا صعوبات، فهي عقبات يمكن تجاوزها؛ لا عوائق وسدود تمنع من العمل، وهذا منطلق جوهري في النهضة والتنمية الإفريقية.

وإننا ننصح القارئ الكريم:

ألا يعدّ المجلة هي أفضل الممكن.. بل نقول له: إن كنت تملك مع إخوانك أن تنشئ مشروعاً أفضل من المجلة؛ فهذا أحد أحلامنا التي ندعو الله تعالى أن يوفق الجميع في تحقيقها.

إنّ النجاح أن تكون سبباً في توليد النجاحات للآخرين، كالمعلّم الذي يتخرج على يديه العلماء والوزراء والقادة، وهم في ميزان حسناته إذا حسنت نيته.

إنّ التنمية والوعي مسيرة لا تتوقف، وليست حكراً على جهة دون جهة.

إنّ يدنا ممدودة لكلّ ناصح، ولكلّ ناقد، ولكلّ معاون.

فالمجتمع لا تقوم به مجلة، ولا مؤسسة، بل المجتمع كيان متكامل من المؤسسات والمراكز والجامعات والمبادرات المؤسسية والفردية، لكن بشرطين: أن تكون محددة الهدف، جيدة الإدارة، وأن يكون رائدها الإصلاح؛ لا مكتسبات شخصية أو مؤسسية.

وبالله التوفيق.